فقد روي عن ابن وهب أنه قال: "سمعت مناديًا ينادي بالمدينة ألا لا يفتي الناسَ إلا مالكُ بن انس وابن أبي ذؤيب"1.

وأهل المدينة هم الذين أمسكوا عن ابن إسحاق، ولم يقبلوا أحاديثه؛ مجاملة لإمامهم؛ مالك بن أنس، واستمر ذلك الموقف حتى بعد وفاة مالك بزمن طويل. فقد روي عن مفضل بن غسان أنه قال: "حضرت يزيد بن هارون، في سنة ثلاث وتسعين ومائة بالمدينة، وهو يحدث بالبقيع، وعنده ناس من أهل المدينة يسمعون، فحدث بأحاديث، حتى حدثهم عن محمد بن إسحاق، فأمسكوا، وقالوا: "لا تحدثنا عنه، نحن أعلم به، فذهب يزيد يحاولهم، فلم يقبلوا منه، فأمسك بزيد2. ويزيد بن هارون هذا من تلاميذ ابن إسحاق.

وبيد أنه كان من أثر موقف مالك من ابن إسحاق أن الإمام البخاري لم يخرج له أحاديث، بينما خرج له الإمام مسلم حديثًا واحدًا، من أجل طعن مالك فيه3.

ولكن رغم كان ذلك فإن ابن إسحاق سيظل جليل القدر، عظيم المكانة عند العلماء.

---

1 المصدر السابق، ج4، ص135.

2 تاريخ بغداد، ج1، ص226.

3 وفيات الأعيان، ج4، ص277.

آثار ابن إسحاق العلمية:

ينسب ابن النديم في الفهرست1 لابن إسحاق كتابين؛ أحدهما، كتابه المشهور، ويسميه ابن النديم كتاب: السيرة والمبتدأ والمغازي، والثاني يسميه كتاب الخلفاء، وهو مفقود، ولم يصل إلينا حتى الآن، أما الكتاب الأول فهو الذي وصلنا في صورة تكاد تكون كاملة، عن طريق عبد الملك بن هشام، برواية زياد بن عبد الله البكائي، والذي أصبح مشهورًا في أوساط العلماء بسيرة ابن هشام. وبينما يسمي ابن النديم هذا الكتاب؛ كتاب السيرة والمبتدأ والمغازي، نجد محمد بن سعد، وهو أسبق من ابن النديم –يسميه كتاب المغازي فقط، ولعل مرجع ذلك الاختلاف في التسمية، هو أن المسلمين كان اهتمامهم في مبدأ الأمر منصبًّا على مغازي رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وكان الصحابة يعلمون أولادهم مغازي رسول الله –صلى الله عليه وسلم– كما يعلمونهم سور القرآن الكريم؛ وذلك

لأهمية المغازي عندهم، ولما فيها من جهاد وتضحيات كبيرة، ولما فيها من تشريع وأحكام وقواعد فقهية وآداب وسلوك أخلاقي عظيم من الرسول –صلى الله عليه وسلم– ومن صحابته الكرام، فكانت القدوة في كل ذلك عظيمة، ومن ثم كان حرص الصحابة –رضوان الله عليهم– على تعليم أولادهم مغازي

---

1 ص136.

الرسول وكل ما يتعلق بها من أحكام وتشريع وآداب. فلما بدأ عهد التدوين كانت المغازي أول ما حظي بالاهتمام الأكبر من العلماء، وبدأوا في تدوينها مستقصين كل أخبارها، ومتتبعين خطى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في كل غزواته، حتى إن بعضهم –محمد بن عمر الواقدي، على سبيل المثال –كان يحرص على مشاهدة مواقع الغزوات بنفسه، ويتفقد الميادين التي شهدت جهاد الرسول –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه.

بل إن الاهتمام بمغازي رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لم يبقَ مقصورًا على مؤلفات علماء المغازي والسير، فعلماء الحديث من أصحاب الصحاح والسنن والمسانيد وغيرهم قد ضمنوا كتبهم أبوابًا عن مغازي رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لهذا –ربما– اكتفى محمد بن سعد بأن سمى كتاب ابن إسحاق كتاب المغازي. ثم أخذت فكرة الكتاب في هذا المجال تنمو وتتطور حتى شملت حياة الرسول كلها والتأريخ للدعوة والدولة الإسلامية في عهده صلى الله عليه وسلم وهذا ما يفهمه الناس الآن؛ إذا تحدثوا عن السيرة النبوية.

متى ألف ابن إسحاق؟:

الرواية المشهورة أن محمد بن إسحاق ألف كتابه –السيرة والمبتدأ والمغازي– في العراق بتكليف من الخليفة العباسي المشهور أبي جعفر المنصور، فالبغدادي في تاريخ بغداد،

وابن خلكان في وفيات الأعيان1 وغيرهما ممن ترجموا لابن إسحاق، يروون أنه وفد على أبي جعفر المنصور، في الحيرة، وذلك قبل أن يتم بناء بغداد وينتقل إليها المنصور –ولقد انتقل المنصور إلى بغداد واتخذها عاصمة لدولته سنة 145هـ– وبينما كان ابن إسحاق عند المنصور، دخل عليه محمد بن المنصور –الذي لقب بالمهدي بعد أن أصبح خليفة بعد وفاة أبيه– فقال المنصور لابن إسحاق؛ أتعرف هذا يا ابن إسحاق؟ قال: نعم؛ هذا ابن أمير المؤمنين. قال: اذهب فصنف له كتابًا منذ خلق الله آدم –عليه السلام– إلى يومنا هذا، فذهب فصنف له هذا الكتاب، فقال المنصور: لقد طولته يا ابن إسحاق، فاذهب فاختصره، فاختصره، فهو هذا الكتاب المختصر، وألقى الكتاب الكبير في خزانة أمير المؤمنين.

معنى هذا أن سيرة ابن هشام التي بين أيدينا، والتي هي تلخيص لسيرة ابن إسحاق الأصلية، هي تلخيص التلخيص، أو مختصر المختصر، وأن الكتاب الأصلي كان كبير الحجم جدًّا ولم يصل إلينا – لسوء الحظ– حتى تلخيص ابن إسحاق الأصلي لم يصل إلينا كاملًا حتى الآن، وإن كنا سمعنا أنهم عثروا عليه مخطوطًا في المملكة المغربية، ولكنهم يتكتمون أمره، وحتى الآن

---

1 انظر: تاريخ بغداد، ج1، ص220 – ووفيات الأعيان، ج4، ص277.

لا نعرف ما إذا كانوا عثروا عليه حقيقة أم لا، وإذا كانوا عثروا عليه فهل نشروه أم لا. وكل ما نعرف منه هو ما جاءنا عن طريق ابن هشام والذي يعرفه الناس الآن بسيرة ابن هشام، والرواية السابقة عن تكليف أبي جعفر المنصور لابن إسحاق بكتابة كتاب في التاريخ من بدء الخليقة إلى وقته هي المشهورة، ومع شهرتها فإن النفس لا تطمئن إليها، بل يمكننا أن نقول: إن محمد بن إسحاق قد ألف كتابه، أو وضع أصوله على الأقل قبل أن يغادر المدينة المنورة إلى العراق وذلك للأسباب الآتية:

أولًا:

تنص تلك الرواية المشهورة –التي أوردها البغدادي وابن خلكان وغيرهما– على أن الخليفة أبا جعفر المنصور طلب من ابن إسحاق أن يؤلف لابنه وولي عهده –محمد المهدي– كتابًا منذ خلق الله آدم إلى وقته الذي هو فيه، وذلك الوقت وإن لم يحدد بدقة، فهو بالتأكيد بعد سنة 136هـ، وهي السنة التي تولى فيها أبو جعفر المنصور الخلافة –بعد وفاة أخيه أبي العباس السفاح– وإذا كان الأمر

كذلك، فلماذا توقف ابن إسحاق بالكتاب عند وفاة الرسول –صلى الله عليه وسلم– ولم يضمنه شيئًا سوى سيرة الرسول –صلى الله عليه وسلم– إلا ما كان من حديثه عن مؤتمر السقيفة، وبيعة الخليفة الأول أبي بكر الصديق –رضي الله عنه– وهي أمور من النتائج المباشرة لوفاة الرسول –صلى الله عليه وسلم.

(61/1)

ثانيًا:

إن كتاب ابن إسحاق الأصلي الذي اختصره ابن هشام كان يحتوي عل أخبار ما كان يرضى عنها العباسيون؛ بل كانوا يستاءون منها، مثل مشاركة جدهم العباس بن عبد المطلب في معركة بدر في صفوف المشركين ضد النبي –صلى الله عليه وسلم– ووقوعه في الأسر، وفداؤه نفسه بقدر كبير من المال، ورغم ما روي من أن الرسول –صلى الله عليه وسلم– قال عن العباس إنه خرج مكرهًا، بل نهى عن قتله –إلا أن العباسيين كانوا يستاءون جدًّا من تلك القصة– التي ذكرها ابن إسحاق في كتابه الأصلي –ونحن عرفنا ذلك من رواية العلماء الذين أخذوا عن الأصل –مثل الطبري– ولذلك حذفها ابن هشام عند تلخيصه لسيرة ابن إسحاق إرضاءً للعباسيين، وتحاشى ذكرها في كتاباته كل من محمد بن عمر الواقدي، وكاتبه محمد بن سعد لنفس السبب؛ وهو كراهية العباسيين لذكرها.

لذلك لو كان ابن إسحاق قد ألف كتابه بأمر أبي جعفر المنصور لكان من المستبعد أن يذكر هذه القصة، وهو يعلم أن الخليفة يستاء من ذكرها. لذلك نرجح أن أصول الكتاب وضعت في المدينة.

(62/1)

ثالثًا:

إننا نجد من بين تلاميذ محمد بن إسحاق الذين رووا عنه كتاب المغازي، تلميذًا مدنيًّا؛ هو إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، الإمام الحافظ، قاضي المدينة1.

ولم يعرف عنه أنه غادر المدينة إلى العراق وأقام بها إقامة طويلة مكنته من رواية ونسخ كتاب أستاذه.

والأقرب إلى المنطق –والحالة هذه– أن يكون إبراهيم بن سعد قد روى عن أستاذه أصول الكتاب، وهو في المدينة، وقبل أن يغادرها إلى العراق. ومن الطبيعي أن يكون محمد بن إسحاق قد حمل معه